

صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى (١)

بقلم

دكتور سمير عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يتمد تاريخ القاهرة في العصور الوسطى من سنة ٩٦٩م حتى سنة ١٥١٧م .
وفي هذه الحقبة التي قاربت خمسة قرون ونصف تعاقبت على حكم القاهرة ثلاث دول
كبرى لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هي دولة الفاطميين ، ودولة
الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

وللمعروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائماً بنوع من الثبات والاستقرار ويطء
التغيير بخلاف ما عليه الحال في الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لانرى وجها للمقارنة بين الأوضاع
السياسية والاقتصادية السائدة فيها ، وتلك التي كانت سائدة أيام الفاطميين
أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والمادات
والتقاليد التي نحرص عليها اليوم والتي حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين
والايوبيين والمماليك .

(*) محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ضمن موسم الفاعره الثقافي
بمناسبة مرور ألف عام على إنشاء مدينة القاهرة - وذلك مساء الاثنين ٢٩ ابريل ١٩٦٩
بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هي أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال المصور الوسطى ، رغم تماقب ثلاث دول عليه في تلك المصور . ولا تقصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة في تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام - الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول لثلاث ظروفها الخاصة السياسية والاقتصادية وربما العقائدية وللذهبية التي عكست صورتها على حياة العاصمة وتركزت أثرا في مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين في بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول المشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هي وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا في مجتمع القاهرة طوال المصور الوسطى ، بل ربما المصور الحديثة . وترجع بعض هذه الأصول للشركة إلى ظروف البيئه التي تمتد بعيدا في بطون التاريخ ، في حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربي الاسلامي وماساده من تقاليد اجتماعيه مشتركة في جميع انحاء الوطن الاسلامي الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا ينبغي في هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية في القاهرة طوال المصور الوسطى أو ذلك القدر المشترك من التقاليد والمادات التي كفت الحياة العامة في القاهرة في تلك المصور ، بقدر ما تمنين الإشارة إلى الطابع الخاص للحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر كل دولة من الدول التي تعاقبت في حكم مصر في المصور الوسطى ، مع بيان العوامل التي تحمكت في تشكيل الحياة الاجتماعية بالقاهرة أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل أهم ما يميز الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر الخلفاء الناطميين للبالنة في أحياء الاعياد والمواسم ، وهي ظاهرة تستحق منا لوقفه خاصة لتليلها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفاء الفاطميين - وخاصة في المصور الأول لتلك الدولة - كان

الدافع الاساسى لتلك الاسراف وتلك اللبالة ، ولكننا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لا يقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا فى إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثل اسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض الوان الطعام وبعض المعادات والتقاليد للربطة بالاعياد والحفلات والتي ما زال قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه الظاهرة ؟ ؟

أن الأمر فى نظرنا لم يكن مجرد ثروة وافره نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يجدوا مجالاً لتبديدها سوى اللبالة فى إحياء الحفلات ومد الاسمطة واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر - من وجهه نظرنا - أبعد من هذا بكثير . لقد قامت الدولة الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لا تدين بهذا المبدأ ولا تأخذ بذلك المذهب . وكان لابد لنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك المصور . وهل هناك طريق للدعاية لأولئك الحكام الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أيسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والخبور يجعل الناس - وخاصة فى العاصمة - لا يرون فى ذلك التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم وبطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الاعياد ولقواكب والاسمطة سبيلاً للدعاية والتنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولائهم ومحبتهم وأعجابهم بالنظام الجديد . هذا فى الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير للناس عن طريق نشر مبادئ المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على اللبالة

في إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجري وعيد مولد النبي (ص). ومنها ما أدخله الفاطميون في مصر مثل مولد علي بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضى الله عنهم. وكذلك الاحتفال بليلالي الوقود الأربعة وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه، فضلا عن الاحتفال بميد الندير - أي غدیر خم - وهو المكان الذي يقول الشيعة أن النبي (ص) ولي عليا بن أبي طالب عهداً فيه وجهه منه بمنزلة هارون من موسى. أما يوم عاشوراء - وهو عاشر المحرم - وقد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق، ويخرج أهل القاهرة إلى الطرقات ليكون وينوحون حزنا على الحسين بن علي الذي استشهد في ذلك اليوم. وكان يعد فيه سماء أطلق عليه اسم سماء الحزن، لا يقدم فيه إلاخبز الشمير والمدس والملححات والجبن ونحوها. وهناك من الأعياد التي شهدتها القاهرة في العصر الفاطمي ما اتخذ صبغة قومية مثل عيد جبر الخليج - أي وقاء النيل - وعيد النوروز - وهو عيد الربيع -، فضلا عن خميس العهد وهو أحد الأعياد المسيحية، يأتي قبل الفصح بثلاثة أيام، واحتفل به الفاطميون مشاركة للنصارى في أعيادهم^(١).

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا في مواكب ضخمة يشقون شوارع القاهرة وسط أفراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة. وبعض هذه اللواكب كانت تسمى للواكب العظام، ويتم في أول العام، وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدي الفطر والاضحى، وجبر الخليج، أما اللواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندي أسم اللواكب المختصرة، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم، ويكون ذلك عادة أيام السبت

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء (١) . وفي بعض هذه اللواكب كانت تسمى آلاف الفرسان وصفوف الجبال ،
وعليها المواجه للزركشة تنهادي في شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد
كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، في حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور
على جانبي الطريق (٢) .

واشتهرت أعياد القاهرة في عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يمد
من أحمطه صارت مضرب للثل في التاريخ . واشهر الاممطة التي كان يقيمها الخلفاء
الفاطميون هي تلك التي كانت تمتد في أول العام المجرى وفي مولد النبي (ص)
وفي غرة رمضان وفي عيدي الفطر والاضحى . ويكفي للوقوف على ضخامة هذه
الاممطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن
السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف (٣) وبذكر
القلقشندي أن السباط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد
وعشرون خروفا ، وثلاثه وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمم ، هذا عدا
القطائر والجلوى (٤) . وبعد أن يفتح كبار القوم السباط ، يباح لامة أهل القاهرة ،
فياً تكون ملاً بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ما تبقى وييمه في الأسواق . وفي مولد
النبي (ص) كان يصنع عشرون قنطاراً من الجلوى توزع في الأزهر على عامة
أهل القاهرة (٥) .

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القاهرة ، عن طريق

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٢) ناصري خسرو ، ص ١٣٦ - ١٤٢ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة للفاطمية طالما هي في يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا في وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، أقتض عنها كثيرون ، وهذه هي سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين اقتصتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية في القاهرة طولهما بالاسراف والبلالة في أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة للماليسكية . ولكن دولة بنى ايوب أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية في وقت صار الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب ، بل أيضاً في مصر ، فضلاً عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الايوبي لمباشرة حياة الترف فإن المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة المدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفد آخر درهم في خزانة سلاطين بنى ايوب .

وبينا نقرأ في مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلي نور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة للمزدين الله ، إذا بابن شداد يروى عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة (١) » . وبينما يحكى للقرنيزى عن الخليفة للمزدين الله الفاطمى أنه انجب

(١) ابن شداد : النواذر السلطانية ، ص ٤٤ .

بنتين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب،
والأخرى عبدة وقد تركت عددا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على
أكياس الزمرد والدنابير والنياب الفاخرة (١) ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن
الجهاد استنفد كل دينار في خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين
درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب (٢) .

إلى وصول الخليفة للمزدين الله الفاطمي إلى مصر ، فكان أول ما شرع فيه هو
تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات والبالغة في فخاما
للواكب . . . أما صلاح الدين الايوبي فكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور
في مصر هو بناء قلعة الجبل وتشيد سور القاهرة واتخاذ كافة الاجراءات لحماية
البلاد والمباد من خطر العدو الصليبي .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر بنى ايوب صارت
مجذبة كل الجذب ، خشنة كل الخشونة ، خالية تماما من مظاهر الأفراح واليسالى
لللاح . إذ الواقع أن الايوبيين حافظوا على أحياء الأعياد الدينية وغير الدينية ،
ولكن في غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقرزى عندما يشير إلى بعض
الإحتفالات في مصر الايوبي لا يتعرض لالوان الاباحية وصنوف للنكر التي انتقدتها
في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في المصريين الفاطمي وللهايكى (٣) . ذلك
أن الايوبيين اقتصروا في الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها باعياد الشيعة ،
في حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال للذهب السنى محل للذهب الشيعي .

(١) المقرزى : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النواذر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقرزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلأن عاشر المحرم - وهو يوم عاشوراء - كان يوم حزن عند الفاطميين ، تفلق فيه الأسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطحنون الحبوب (١) . وهكذا لم تحرم القاهرة في عصر الايوبيين من احياء الحفلات والاعباد ، ولكن في غير تبذل أو إسراف ، فنسمع عن الاسمطة السلطانية في العصر الأيوبي ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة في القاهرة كان السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه ، ولكننا لانسمع عن الاسراف واللبالنة اللتين اتصفت بهما الحفلات وللواكب الفاطمية أو المماليكية (٢) .

حقيقة أننا نجد في المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالنوا أحيانا في إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لاهيان دولته وموظفيها بين حين وآخر (٣) . كذلك روى عن السلطات الكامل إنه قام مماطا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بناسبة ختان ابنه المادل الصغير ، واتفق في ذلك السباط أموالا باهظة (٤) . وتكرر ذلك في عهد السلطان للمادل الصغير الذي أقام مماطا في اليبندان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والإبل (٥) . ولكن هذه كلها كانت حالات فردية ، لا تعبّر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة في الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصرى الفاطميين

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٥٩

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٤٠٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٤) النويرى : نهاية العرب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠

والأيوبيين ، فإن الحقيقتة الكبرى التي لا يرى إليها شك هي أن القاهرة في عصر
 سلاطين المماليك شهدت ازدهار حلقته، نشاطها الإجتماعي وغير الإجتماعي في العصور
 الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد
 وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزوة مهددا بابتلاع مصر ووادي النيل .
 هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذي كان لا يزال رابضا على أرض الشام عند قيام
 سلطنة المماليك . ولكن المماليك استطاعوا في مهلة دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم
 نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم كلما حدثتهم أنفسهم بعبور نهر الفرات
 لتهدد الشام . أما الخطر الصليبي فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على
 المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك في مدى أربعين عاما من قيام دولتهم
 أن قوضوا أركان البناء الصليبي بالشام ، واستولوا على للندن وللماتل الصليبية
 واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام
 سنة ١٢٩١ (١) .

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها في عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذي
 أحسوه في عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم في ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا
 أو موكبا ، لاستقبال سلطان وقد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين (٢) ،
 أو احتفال بشقاء سلطان من مرض ألم به (٣) ، أو إحياء لميئيد أو لمناسبة دينية
 أو قومية (٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة في طريقه إلى سرحة
 الصيد أو ملعب الكرة أو شاطئ النيل طلبا للراحة وتغيير الهواء (٥) . وفي جميع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ١٣٨

(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤

(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ — ٨٧ .

هذه للناسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم أصحاب الحوائت بتبيضا وتزيينا، ومصطف للفانى من النساء فى المكابن ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلمة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس فى إقامة أقواس النصر — التى عرفت باسم القلاع — فى الشوارع ، وفى الليلة السابقة لموكب يخرج الناس إلى الشوارع الرئيسية التى يمر بها موكب السلطان لاستئجار الأماكن التى يقضون بها الليل استعدادا للفرجة فى اليوم التالى . وهكذا تقضى القاهرة ليلتها مضاءة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات للنساء بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال (١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بميد دبنى أو قوسى أو بموكب سلطانى ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلى فهذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التى قد يصل عددها إلى ثمانمائة جملى وستة وثلاثين قطارا من البغال تشق شوارع القاهرة فى موكب حافل إلى منزل الزوجية (٢) وهذا رجله شفى من مرضه فأتجه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التقوا حوله إبتهاجا بشفاائه (٣) . وهذه منسية شهيرة تنفى فى مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المكان للاستمتاع بصوتها وغنائها (٤) .

على أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية فى القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها فى المصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعى منا وقفة قصيرة لتفسير أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع

(١) أبو المحاسن : النجوم الراهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢

ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٨

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢

ص ٣٨٤ .

إنما يتوقف على طبيعة هذا المجتمع وخاصة من ناحية حجمه وبنائه ومدى ثرائه . فإذا نظرنا إلى القاهرة في عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها قد استوفت جميع أركان للنشاط الاجتماعى الخصب . فمن ناحية الحجم ، فانت القاهرة في عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العالم من حيث السعة وكثرة السكان . وحسبنا أن ابن بطوطة — وهو الرحالة الذى طاف بمعظم أركان العالم المعروف في القرن الثامن المجرى (الرابع عشر للميلاد) — وصف القاهرة بأنها « أم البلاد المتناهية في كثرة العماره ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها (١) » وذكر جيهان تود الذى زار مصر سنة ١٥٢٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس (٢) ، في حين قال برنارد دي بريدنباخ أنه لا يمتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهى للقاهرة في كثرة سكانها والسامها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع سكان إيطاليا لا يظاهون في الكثرة القاهرة وحدها (٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة في ذلك العصر ، فكانت غالبية سكانها من المواطنين ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامه من المسلمين وأهل الذمة سواء ولكن امتازت القاهرة في عصر سلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك — وهم الطبقة الحاكمة السائدة في البلاد — ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, 8. 4.

(٣) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية في عصر سلاطين المماليك ،
 بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية للكبرى بين الشرق والغرب في ذلك العصر
 نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقي طريق مصر والبحر الأحمر وحده
 بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذي مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق
 وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها
 في مجتمع القاهرة في ذلك العصر (١) .

وكان أن اكتظت القاهرة في عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت
 الدينية كالجموع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيارسنانات
 والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين
 المماليك بتجميل عاصمتهم وكس شوارعها ورشها بالمياه منعا لإثارة الأتربة (٢) .
 وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل
 إطفاء ما يحدث من الحرائق (٣) واختص المشاعلية بأسرمة البيوت والحمامات وخزاناتها
 فقاموا على زحها وتنظيفها بين حين وآخر (٤) . كذلك أمر بعض السلاطين
 — مثل بيبرس وبقون — باخراج البرصاء والمجدومين من القاهرة ، وانذروا
 من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل (٥) . وهذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة
 من الكلاب لأنها من الحيوانات المسكروهة لنجاستها ، فأمروا بامسكها ونفيها
 بعيدا خارج المدينة (٦) .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٣) المقرئى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .

(٥) تاريف ابن الفرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ

(٦) ابن حجر : أنباء القمر ، ج ١ ص ١٢٥ .

وهكذا رأيت القاهرة مجتمعا صاخبا في عصر سلاطين المماليك ، فبالإضافة إلى الاحتفالات وللواكب العديدة التي سبق ذكرها ، اتصفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة لباعة الجائلين ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة في رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعة ليسمعهم الراغبون في قص الشعر والزينة^(١) . هذا عدا المائة من النساء اللاتي تمتعن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأسن بعضهم ويقضين الساعات الطوال بتناقل أخبار البيوت وأسرار العائلات^(٢) . يضاف إلى ذلك كثرة الدواب ، فالحیول اللطيفة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابسهم للزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق للزدحمة وهم يضربون الناس يمنا ويمرة ليفسحوا لهم ، غير مباليين إذا سقط بعض اللارة تحت حوافر خيولهم^(٣) والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لمدادها بما تحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوي للثري هذه الجمال في القاهرة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمائتي ألف جملة^(٤) . أما السقاؤون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا أسماءهم عند الختسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة ، مقابل السماح لهم بالتجارة في ماء النيل^(٥) ، أما الخمر فبانت عددا كبيرا لأنها قامت في قاهرة عصر المماليك بدور سيارات الاجرة ، فعنى أصحابها برقمها وتطهيرها ، وقدر ابن بطوطة

(١) Tafur : Travels, p. 101.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : للدخل ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) Schefer : Le Voyage d' Outremer, p' XXX III

(٤) رحلة البلوي المغربي ، ص ٥٥ .

(٥) Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144.

عدد للكاريين في القاهرة ثلاثين ألف مكارى (١) .

وإذا كان أهل القاهرة في عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتساقط طائفة المماليك على عامة الأهالي من المصريين (٢) ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء (٣) ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم (٤) فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح للروح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل للتسليّة والترويح عن النفس عند أهل القاهرة في عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق وللتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها (٥) . وكان نهر النيل دائماً ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة في فصل الصيف (٦) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية (٧) هذا كله فضلا عن الألعاب التي تلهي بها الناس والتي اتخذ بعضها طابع للناصرة ، مثل تطيير الحمام والناطحة والكباش وللناقرة بالديوك فيراهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الديوك ، فإذا ماز كسب الرهان (٨) كذلك عرفت

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٤٠١ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .

(٥) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٦) ابن الحاج : المسئل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .

(٧) ابن أياس : بدائم الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المعاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

القاهرة في ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يملون بالديبة والقرادة الذين يلعبون بالقروذ^(١) . وهكذا اكتسبت القاهرة في ذلك العصر شهرة واسعة في اللهو واللرح ، حتى أن الناصر ابن صاحب المين عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصناعات والساحر وأرباب اللامى^(٢) » .

على أن حب أهل القاهرة للروح واللهو لم يقلل أبدا من للسخة الدينية الواضحة التي انصفت بها القاهرة ومجتمعها في عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة في ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد على أيدي التتار ، الأمر الذي جعل القاهرة محورا لنشاط ديني فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية لضخمه مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها^(٣) وترجع أفخر العمار الإسلامية التي تزدان بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالقدات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذواوجهتين ، أو عبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين وباطنه الاثم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلا عن روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقية مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتماطى الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن موجه الانحلال الخلقى سادت بقية البلاد الإسلامية في تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،

(٢) للمقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) سعيد عبده الفتح عاشور : المجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣

وما بعدها .

نرى أن المالك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية في القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برقوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعدل واحترام الفقهاء ، لم يتخرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المالك الحسان لعمل الفاحشه فيهم »^(١) ويعبر الميرزى في مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « نفى في أهل الدولة محبة الكرمان » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المالك بالذات^(٢) أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه في القاهرة على عصر سلاطين المالك ، وعبر عن ذلك الميرزى بقوله « فشت هذه الشجرة الحبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا ، ولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام »^(٣) واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش في ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق^(٤) . ولم تكن الخمر أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس في القاهرة على عصر سلاطين المالك . وقد ابتكر بعض أمراء المالك أنواعا مستحدثة من الخمر نسبت إليهم مثل التمر بناوى نسبة إلى الأمير تمرنا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف في عصر المالك نبيذ التمر ويعمل من لبن الخيل . وقيل عن السلطان فرج بن برقوق أنه كان أحيانا يشق عوارق القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر^(٥) ! وكان من الطبيعي أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين في القاهرة ، حتى أعتبرت الخمر

(١) الميرزى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) الميرزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) الميرزى : ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٣٨١

(٦) أبو المعاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الفرج ج ٢ ص ٢٧ .

متمة للمنانى فى الحفلات والافراح (١) . وكذلك انتشر البناء فى القاهرة على عصر
ملاطين المالك ، حتى وقت البناء بالاسواق تحت عين المارة ، واعترفت به
الموتة ففرضت عليهم ضرائب مقررة (٢) .

لا شك فى أن نشو هذه الامراض وغيرها فى مجتمع القاهرة على عصر ملاطين
المالك إنما كان نتيجة طبيعية لا كتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود
نسبة كبيرة من الاغراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف
عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة المناجئة التى هبطت على ذلك المجتمع ولتى اعتبرها
ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات (٣) .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع
الذى عبر عنه للسيوطى فى عصر المالك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط
رجال الفضلاء (٤) » .

دكتور

سميد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسى تاريخ الصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) مقممة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .